

## بحث التوسل والاستغاثة

### العلامة المفسر الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المراد بالتوسل هنا أن يتخذ العبد وسيلة - أي واسطة - إلى الله تعالى في دعائه أو رجائه، لما ثبت لتلك الوسطة عند الله تعالى من الفضل، أو الحق، أو الجاه، أو المنزلة، وإجابة الدعاء، وجميع ذلك جائز شرعاً، لما دلَّ عليه كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وآثار الصحابة، وإجماع الأمة.

### أما أدلة الكتاب:

قال الله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }**.

فقد أمر الله تعالى بترك المحرمات والمنهيات، وابتغاء الوسيلة بالأعمال الصالحة الفاضلة، المقربة إليه سبحانه.

وقد شرع التوسل بالأعمال الصالحة، رجاء الثواب وإجابة الدعاء، قال الله تعالى: **{ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ }** فقد توسلوا إلى الله تعالى بإيمانهم أن يغفر الله تعالى لهم، وهذا ظاهر لا يختلف فيه، ولكن من تأمل الآية الكريمة يتبين له أن الآية عامة في وسائل الأعمال الصالحة، والعمال الصالحين - أي الأعمال الفاضلة والذوات الفاضلة - لأنه سبحانه أمر بالتقوى، وابتغاء الوسيلة، والتقوى عبارة عن: فعل المأمورات، واجتناب المنهيات، فإذا فسرنا ابتغاء الوسيلة بالأعمال الصالحة، صار الأمر فيه تكرر وتأکید، ولكن إذا أريد بالوسيلة الذوات الفاضلة كان تأسيساً، وهو مقدم على التأكيد.

وقد ذكر العلامة البغوي القول بالعموم في آية **{ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ }** ونسب ذلك إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد ورد إطلاق الوسيلة على الذوات الفاضلة، ففي (فتح الباري) أن الزبير بن بكار روى بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استسقى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فذكر الحديث، وفيه: فخطب عمر رضي الله عنه فقال: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس رضي الله عنه ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله". وفيه: "فما رجعوا حتى سقاهم الله تعالى".

وأخرجه البلاذري عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن أبيه.

فكان العباس رضي الله عنهما وسيلتهم إلى الله تعالى، حتى إنه صرح بذلك لما استسقى لهم حيث قال: "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بس إليك ملكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة: فاسقنا الغيث" فأرخت السماء مثل الجبال، حتى أخضبت الأرض وعاش الناس.

فقد صرح العباس رضي الله عنه أن الناس جعلوه وسيلتهم إلى الله تعالى.

وقال الإمام مالك رضي الله عنه لأبي جعفر: "وَلَمْ تَصْرَفْ وَجْهَكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". كما سيأتي ذلك محققاً بإسناده.

ومن الأدلة على مشروعية التوسل قول الله تعالى: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}** فليتأمل العاقل سر قوله **{جَاءُوكَ}** وقوله: **{وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ}** يفهم من ذلك صريح مشروعية اتخاذه وسيلة إلى الله تعالى، ولولا ذلك فما الفائدة في قوله: **{جَاءُوكَ}** وهذا عام في حياته الدنيوية وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم، كما سيأتي ذلك بأدلته إن شاء الله تعالى.

وأما الأحاديث النبوية الدالة على مشروعية التوسل فهي كثيرة نذكر بعضها منها:

الدليل الأول:

روى الترمذي والنسائي والبيهقي وصححه الحاكم، وقال: على شرطهما، عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه: أن رجلاً ضريراً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف بصري. وفي رواية: أن يعافيني.

فقال: (إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك).

قال: فادعه.

فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: (اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم، نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فيَّ).

فتوضأ ثم صلى ركعتين. جاء في رواية البيهقي: (فقام وقد أبصر).

فهذا الحديث يدل على مشروعية التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإن الضرير هو الذي دعا وتوجه إلى الله تعالى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليس ذلك خاصاً بالضرير، بل هو عام له ولغيره، في حياته صلى الله عليه وآله وسلم وبعد وفاته، يدل على ذلك الزيادة التي رواها ابن خيثمة، حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: (فإن كانت لك حاجة فافعل مثل ذلك) وهي زيادة من ثقة مقبولة.

وأيضاً راوي الحديث وهو عثمان بن حنيف رضي الله عنه حملة على العموم، حيث علم رجلاً آخر كانت له حاجة، فدعا بهذا الدعاء فقضيت حاجته، وكان ذلك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وفهم الرواي حجة في المراد من الحديث. وأيضاً فإن أئمة الحديث فهموا من هذا الحديث العموم - يعني: إن التوسل به صلى الله عليه وسلم مشروع في حياته وبعد وفاته، في سائر الحاجات - فقد ذكره الترمذي والحاكم والبيهقي في كتاب الدعوات، لأنه من جملة الأدعية المشروعة وذكره النووي في باب أذكار صلاة الحاجة على أنه من جملة الأذكار التي يدعى بها عند الحاجة.

الدليل الثاني:

روى البيهقي والطبراني في (المعجم الكبير والصغير) عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه، أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن حنيف رضي الله عنه في حاجة فكان لا يلتفت إليه، ولا ينظر إليه في حاجته، فشكى ذلك لابن حنيف رضي الله عنه فقال: ائت الميضاة - أي محل الوضوء - فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فيقضي لي حاجتي - وتذكر حاجتك - ورح حتى أروح معك، فانطلق الرجل، فصنع ما قال عثمان بن حنيف رضي الله عنه، ثم أتى باب عثمان رضي الله عنه فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان أمير المؤمنين، فأجلسه معه على الطنفسة وقال: حاجتك؟. فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: فلقي عثمان بن حنيف رضي الله عنه - أي الذي علمه دعاء الحاجة - فقال: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلى حتى كلمته في.

فقال عثمان بن حنيف رضي الله عنه: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتاه ضرير، فشكا ذهاب بصره. الحديث كما تقدم. وسنده لا بأس به، كما ذكره البيهقي والطبراني الحافظ السبكي والقسطلاني وغيرهم.

### الدليل الثالث:

من السنة على إثبات التوسل بالذات الفاضلة: توسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه، وأمره الناس أن يتخذوا العباس وسيلة إلى الله تعالى في سقياهم.

فقد روى البخاري وغيره، عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم. قال: فيسقون.

فهذا صريح في التوسل بالذوات الفاضلة.

وقد يقول القائل: إن هذا توسل بدعاء العباس رضي الله عنه.

قلنا: لو كان المقصود الدعاء لدعاه رضي الله عنه ولكن المقصود الداعي وهو العباس رضي الله عنه باعتبار نسبته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقرابته منه، صرّح بذلك عمر رضي الله عنه وعبر عن ذلك العباس رضي الله عنه.

فقد ورد أن عمر خطب فقال: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله).

وفي ذلك يقول العباس رضي الله عنه: (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه القوم بي إليك بمكاني من نبيك) إلخ كما تقدم.

وهذا كما روى البيهقي في (الدلائل) عن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله أتيتك وما لنا بغير يئط ولا صبي يغط. ثم أنشد شعراً يقول فيه:

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل

فقام صلى الله عليه وسلم يجر رداءه، حتى صعد المنبر فرفع يديه إلى السماء فقال: (اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريعاً غدقاً طبقاً نافعاً غير ضار عاجلاً غير راث تملأ به الضرع وتبت به الزرع وتحيي به الأرض بعد موتها).

قال أنس رضي الله عنه: فما ردّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه إلى نحره حتى التقت السماء بأبراقها، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه، من ينشدنا قوله؟).

فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقد أقر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قول أبي طالب: يستسقى الغمام بوجهه وفي ذلك صريح التوسل بوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الدليل الرابع على جواز التوسل بالذوات الفاضلة:

توسل الصحابة رضي الله عنهم واستسقاؤهم وتبركاتهم وتمسحاتهم في سائر كرباتهم ومهماتهم بأثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والتماسهم الخير والبركة في ذلك.

وهذا أمر ثابت في الأحاديث الصحيحة، شائع بين الصحابة والتابعين.

جاء في (صحيح) مسلم عن عبد الله مولى أسماء رضي الله عنها في حديث طويل وفيه: فقالت: أسماء رضي الله عنها: هذه جبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأخرجت إليَّ جبة طيالة كسروانية لها لبنة ديباج، وفرجها مكفوفين بالديباج، فقالت: هذه كانت عند السيدة عائشة رضي الله عنها حتى قبضت، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها.

فهذا يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يستشفون بجبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى ذلك: أنهم يطلبون الشفاء من الله تعالى، متوسلين بفضل هذه الجبة الشريفة العظيمة عند الله تعالى، فإذا صحَّ التوسل بجمته صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف لا يصح التوسل بذاته صلى الله عليه وآله وسلم!!!.

وفي (الصحيحين) من حديث صلح الحديبية:

فقال: والله ما تنحَّم رسول الله تُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك به وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده. فكانت الصحابة يتبركون بنخامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو طلب البركة من الله تعالى بفضل هذه الآثار عند الله تعالى.

وفي (صحيح) البخاري عن ابن سيرين رضي الله عنه قال: قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصبناه من قبل أنس رضي الله عنه.

فقال: لأن تكون عندي شعرة من أحب إلي من الدنيا وما فيها.

وعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ شعره صلى الله عليه وسلم. رواه البخاري.

وفي صحيح مسلم، عن أنس رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحلاق يخلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل.

فكانوا يحتفظون بشعره صلى الله عليه وسلم للتبرك والاستشفاء بها، وهذا التوسل بعينه. وقد جاء التصريح في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن موهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقدرح من ماء، فيه شعر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان إذا أصاب الإنسان عينٌ أو شيء بعث إليها مخضبه.

فكانوا يبعثون إلى السيدة أم سلمة رضي الله عنها بإناء فيه ماء، فتخضض الجُلُجُل الذي فيه من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يستشفون بذلك - أي يطلبون الشفاء من الله تعالى، بفضل هذا الأثر عند الله تعالى - وهذا عين التوسل بالذات.

وفي (الصحيحين) عن سهل بن سعد رضي الله عنه في البردة التي استوهبها من النبي صلى الله عليه وسلم، فلامه الصحابة على طلبها فقال: إنما سألتها إياها لتكون كفي. وفي رواية فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لعلِّي أكفَّن بها.

وفي (صحيح) مسلم، عن أم سليم رضي الله عنها أنها فتحت عتيديها - أي: صندوقاً صغيراً - فجعلت تنشف فيه عرق النبي صلى الله عليه وسلم، فتعصره في قواريرها، في إناء من زجاج. فقال صلى الله عليه وآله وسلم لما استيقظ من نومه: **(ما تصنعين يا أم سليم؟)**.

فقالت: يا رسول نرجو بركته لصبياننا.

فقال: **(أصبِتِ).**

فقد أقرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التوسل بذواته آثاره الشريفة، فكيف لا يجوز التوسل بذاته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي البخاري عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: (أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في قبة حمراء من آدم، ورأبت بلالاً أخذ وِضوء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والناس يتدرون الوضوء، فمن أصاب منه شيئاً تمسح به، ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه).

فكانوا يحرصون على آثاره صلى الله عليه وآله وسلم تبركاً واستشفاءً واسترحاماً.

فكان أنس يحتفظ بنعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنده، كما في (صحيح) البخاري عن ابن طهمان قال: أخرج إلينا أنس بن مالك رضي الله عنه نعلين لهما قبالان، فقال ثابت البناني: هذه نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ثبت أن خالد بن الوليد رضي الله عنه كان يضع في قلنسوته من شعرات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسقطت قلنسوته في بعض حروبه، فشد عليها يبحث عنها، حتى أنكر عليه بعض الصحابة من كثرة القتل بسببها من الأعداء، فقال خالد: لم أفعل ذلك بسبب القلنسوة، بل لما تضمنته من شعره صلى الله عليه وآله وسلم، لئلا أسلب بركتها، وتقع في أيدي المشركين. فهذا خالد رضي الله عنه يستنصر على الأعداء بفضل شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأوصى سيدنا معاوية رضي الله عنه أن يجعل من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحت لسانه حين يموت.

وجاء في (صِفَةِ الصَّفْوَةِ): أن ولداً للفضل بن الربيع أعطى للإمام أحمد - وهو في الحبس - ثلاث شعرات، فقال: هذا من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأوصى الإمام أحمد عند موته أن يجعل على كل عين شعرة، وشعرة على لسانه. ففعل ذلك به عند موته. فهذا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة يتوسل إلى الله تعالى، أن يغفر له ويرحمه، بفضل شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وجاء في فضائل الإمام البخاري أنه كان معه شيء من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجعله في ملبوسه. ذكر ذلك في مقدمة (فتح الباري) وهذا توسل من الإمام البخاري بشعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ابتغاء الخير والبركة. وفي (صحيح) مسلم، عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى الغداة - صلاة الفجر - جاء خدم المدينة بأنيتهم فيها الماء، فلا يأتونه بإناء إلا غمس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه يده، وربما جاءه في الغداة الباردة فيغمس يده فيه) فكانوا يتبركون بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويستشفون بذلك، ويقرّهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال: كانت أم سليم رضي الله عنه تبسط لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقيل عندها - ينام ضحوياً عندها - فإذا أخذت من عرقه وشعره فجعلته في قارورة - زجاجة - ثم جمعته في سكر، فلما حُضِرَ أنس أوصى أن يجعل في حنوطه من ذلك السكر.

فهذا أنس رضي الله عنه يوصي أن يُجعلَ في حنوطه بعد موته من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعرقه الشريف، متوسلاً بذلك إلى الله تعالى أن يغفر له ويرحمه. فإن قال القائل: إنَّ هذه الأحاديث لا تدلُّ على التوسل بالذوات، إنما هي من باب التبرك فقط.

قلنا في الجواب: إن هذا التمسح من الصحابة، وهذا الحرص منهم على آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا الإيصال منهم يجعل ذلك في حنوطهم وأكفانهم، هذا كله إما أن يكون عملاً أجوف لا معنى له، ولا بغية لهم فيه، فيكون عملاً عبثاً لعباً، وحاشا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقر أصحابه على عبث أو لعب ليس فيه غرض صحيح، فإذا لا بُدُّ وأن لهم غرضاً وغاية يطلبونها بذلك التمسح بالآثار، وهذا هو التبرك أو الاستشفاء أو الاسترحام أو الاستنصار أو نحو ذلك مما جاء مصرحاً به، ولا شك أن معنى التبرك بالأثر والاستشفاء به، أو الاسترحام به، معنى ذلك هو طلب البركة من الله تعالى، وطلب الشفاعة من الله تعالى، وطلب الرحمة من الله تعالى بسبب فضل هذه الآثار الشريفة المحمدية عند الله تعالى. وهذا هو حقيقة التوسل بالذوات.

هذا وقد ثبت أن ابن عمر رضي الله عنهما من الصحابة، وسعيد بن المسيب من أجل التابعين، ويحيى بن سعيد شيخ الإمام مالك، وكذلك ثبت عن الإمام أحمد، كل هؤلاء ثبت عنهم أنهم تمسحوا بمنبر النبي صلى الله عليه وسلم تبركاً به، لكونه محلَّ جلوس المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

كما ثبت عن الإمام أحمد أنه سئل عن تقبيل قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقبيل منبره؟ فقال: لا بأس بذلك.

وفي (مسند) الإمام أحمد، عن جعفر بن محمد قال: كان الماء يستنقع في جفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين غسلوه بعد موته، فكان علي رضي الله عنه يحسوه - يحسو ذلك الماء من بركاته صلى الله عليه وآله وسلم -.

وأما الدليل على جواز التوسل بحق ذاته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم:

فقد ورد في الحديث، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله سلم: (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعةً، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك). رواه ابن ماجه وهذا لفظه، ورواه الطبراني والإمام أحمد. وبهذه المتابعات يزول ما في بعض رواته من ضعف، ولذلك حسنه جماعة من أئمة الحفاظ.

و روى الطبراني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها أم علي رضي الله عنه، دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجلس عند رأسها فقال: (رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني، تريدان بذلك وجه الله والدار الآخرة) ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور، وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، ثم خلع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قميصه فألبسه إياها، وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلماً أسود رضي الله عنهم يحفرون، فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، وأخرج ترابه، فلما فرغ دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاضطجع فيه، وقال: (الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء من قبلي، فإنك أرحم الراحمين). وكبر عليها أربعاً، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر رضي الله عنه.

قال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، غير روح بن صلاح، وقد وثقه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف. أي: فيه ضعف محتمل ليس بالشديد.

وقول الحنفية رضي الله عنهم: وكره بحق رسلك وأنبيائك وأوليائك أو بحق البيت، لأنه لا حق للخلق على الخالق، فينبغي حمل الكراهة على من كان يتوهم أن للعبد حقاً واجباً على الله تعالى، كما هو بدعة المعتزلة.

وأما إذا أريد بالحق الحق الذي حقه الله على نفسه تفضلاً، كما قال الله تعالى: **{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}**. وأمثال ذلك، وهذا هو الذي دلت عليه الأحاديث السابقة، فإنه لا مانع منه، لأنه توسل إلى الله تعالى بحقٍ أوجبه الله تعالى على نفسه.

**وأما دليل التوسل بجاهه صلى الله عليه وآله وسلم:**

فقد أخبر الله تعالى عن وجاهة سيدنا موسى وعيسى فقال في موسى: **{وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}** وقال في عيسى: **{وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}** ولا شك أنَّ جاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أعظم، فإنه وجه جميع الأنبياء وإمام صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

**التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم كما هو ثابت في حياته الدنيوية، كذلك ثابت بعد انتقاله إلى الحياة البرزخية:**

فإن قال قائل: سلمنا أن التوسل به صلى الله عليه وسلم ثابت ولكنه خاص في حال الحياة الدنيوية وأما بعد ذلك فلا يصح التوسل به.

**قلنا في الجواب:**

إن تخصيص ذلك في حال حياته الدنيوية لا دليل عليه، وإنما تثبت الأدلة جواز التوسل به صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله، في حياته الدنيوية، وبعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم. ودليل ذلك:

**أولاً:**

حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه المتقدم، فإنه علم الرجل الذي كان له حاجة عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنه علمه أن يدعو فيقول: **(اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك صلى الله عليه وآله وسلم، نبي الرحمة) إلى تمام الحديث، وذهب الرجل ودعا به، ففضيت حاجته، وكان ذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.**

## ثانياً:

إن تبرك الصحابة والتابعين، واستشفاءهم بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما كان في حياته الدنيوية وكثير منها ما كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما تقدم في الأحاديث، فإن المانع يزعم أن أن الميت لا يتوسل به، لأنه لا روح له. قلنا له: قد توسل الصحابة بآثاره صلى الله عليه وآله وسلم في قبره كما يأتي.

## ثالثاً:

تقدّم في حديث فاطمة بنت أسد رضي الله عنها كيف توسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحق الأنبياء قبله، وذلك صريح في التوسل بعد الوفاة.

## رابعاً:

إن التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم في سائر أحواله وأكوانه، هو الأمر الذي فهمه الإمام مالك، وفهمه أهل الصفاء والنقاء من العلماء والأتقياء. فقد قال القاضي عياض: واعلم أن حرمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته، وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آله، وتعظيم أهل بيته وأصحابه، ثم روى بإسناده إلى ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدّب قوماً فقال: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ }** الآية، ومدح قوماً فقال: **{ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ }** الآية، ودم قوماً فقال: **{ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ }** الآية. وإن حرمة ميتاً كحرمة حياً. فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

فقال الإمام مالك: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة، بل استقبل القبلة واستشفع به فيشفعه الله تعالى، قال الله: **{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ }**

**رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** .

وهذه المناظرة بين الإمام مالك وأبي جعفر ذكرها التقى السبكي، القسطلاني، والسمهودي، وابن حجر في الجواهر المنظم، وغيرهم وسندها حسن.

و روى ابن عساكر في (تاريخه)، وابن الجوزي في (مثير الغرام) عن العتبي، أن أعرابياً جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: **{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا }** وقرأ الآية، وقال: وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دُفنت في التراب أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

فقال العتبي: فغلبتني عيناى، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم، فقال: يا عتبي الحق الأعرابي وبشره بأن الله تعالى غفر له.

وهذه القصة ذكرها ابن كثير في (تفسيره) بإقرارها، وذكرها كثير من المؤرخين: كابن خلكان وغيره، وتلقاها العلماء بالقبول، وذكرها أئمة المذاهب في المناسك مستحسنين لها، ففيها نداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وطلب الشفاعة منه وهو في قبره الشريف، فلو كان نداؤه والتوسل به بعد الوفاة محذوراً لأنكروها، وما قرروها في كتبهم.

وقال القسطلاني والسمهودي: روى أبو سعيد السمعاني، عن علي رضي الله عنه، أن أعرابياً قدم علينا بعدما دفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبره، وحتى من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل إليك: **{ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ }** وقرأ الآية، وقال: قد ظلمت نفسي، وجئتك تستغفر لي. فنودي من القبر: قد عُفِرَ لك.

وهذه القصة ذكرها القرطبي في تفسيره عند الآية.

وحكاية العلماء والمحدثين لهذه الأخبار تثبت لصحتها، وتثبت لعقيدتها، إذ لو كان شركاً لأنكروه وما أقروه، فأقرار ابن كثير والقرطبي وغيرهما لهذه الأخبار هو إقرار بصحة اعتقادها. إذ لو كان منكراً لأنكروه.

### خامساً:

قال الإمام الدارمي في (سننه) باب ما أكرم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته. ثم أسند إلى أبي الجوزاء قال: فُحِطَ أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: انظروا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كوى -أي: نوافذ- إلى السماء، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف. قال: ففعلوا، فمطرنا مطراً، حتى نبت العشب، وسمت الإبل، حتى تفتقت من الشحم فسُمِّي عام الفتق.

فقد أمرت السيدة الصديقة رضي الله عنها بفتح الكوى إلى السماء استمطاراً، ولم ينكر عليها أحد من الصحابة والتابعين مع كثرتهم، فلو كان أمراً فيه شرك أو نحوه لما أمرت به الصديقة، بل لو كان شركاً لما رواه الدارمي بإقرار، بل هذا الصنيع من الصديقة لا يدرك بالرأي والاجتهاد، فلا بد وأنها مستندة إلى دليل ثابت عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

و روى الحاكم في (المستدرک) أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه غزا قسطنطينة في خلافة معاوية رضي الله عنه، فقتل هناك، ودفنه المسلمون في أصل سور البلد. قال الراوي: فالروم يزورون قبره، ويستقون به إذا قُحِطوا.

وجاء في (صفة الصفوة) أن أحمد بن الفتح، رأى بشر بن الحارث الحافي في المنام، فسأله عن معروف الكرخي رضي الله عنه فقال: هيهات، حالت بيننا وبينه الحجب، إنَّ معروفًا لم يعبد الله شوقاً إلى جنته، ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إليه، فرفعه الله تعالى إلى الرفيق الأعلى، فمن كانت

له إلى الله حاجة فليأت قبره، وليدع، فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى.

قال ابن الجوزي: وقبر معروف ظاهر يتبرك به في بغداد، وكان إبراهيم الحربي صاحب الإمام أحمد يقول: قبر معروف الترياق المجرّب.

وجاء عن عز الدين بن جماعة في كتاب (أنس المحاضرة) عن علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة، وأجىء إلى قبره في كل يوم - أي زائراً - فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين، وجئت وسألت الله تعالى عنده، فما تبعد عني حتى تنقضي.

فهذا يدلنا على صحة التوسل بال صالحين في الحياة وبعد الممات.

وقد يقول القائل: لو كان التوسل بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد الوفاة جائزاً، لتوسل به عمر رضي الله عنه، ولم يتوسل بالعباس رضي الله عنه.

قلنا في الجواب:

أولاً:

ترك فعل الشيء بلا نهي عن ذلك الشيء، لا يدلُّ على عدم جواز الفعل، فكم من أمور لم يفعلها بعض الصحابة مع أنهم صرَّحوا بجوازها، وأقروها إذا فعلت، ومن ذلك قضية التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الوفاة، فإن عمر رضي الله عنه نفسه أقره ولم ينكره، فقد روى البيهقي، وابن أبي شيبة، عن مالك الدار رضي الله عنه، وكان خازن عمر رضي الله عنه قال: أصاب الناس قحط في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشكى له فقال: يا رسول الله استسقى لأمتك، فإنهم قد هلكوا. فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ائت عمر، وأقرئه السلام، وأخبره أنهم مسقون، وقل له: عليك الكيس الكيس.

فأتى الرجل عمر رضي الله عنه فأخبره، فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه.

وقد صحح الحافظ في الفتح إسناده وقال: وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى في المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة رضي الله عنهم.

ثانياً:

إن توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما ليس هو عدولاً عن التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل هو متضمن للتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه إنما توسل بالعباس لأنه عمّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهو يتوسل بهذه القرابة كما صرّح بقوله: (وإننا نتوسلُ إليك بعمّ نبيك) ولما كان موقف الاستسقاء يتطلب الدعاء من الإمام حتى يسمعه الناس، ويحصل لهم خشعة وانكسار، وذل وافتقار إلى الله تعالى، فلذلك أناب العباس في الدعاء بدلاً عنه، فهذا العمل دليل على حقيقة التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث قال: (وإننا نتوسلُ إليك بعمّ نبيك) أي: فأجب دعاءه لفضل نبيك صلى الله عليه وآله وسلم، وأيضاً فيه إقامة شعيرة الاستسقاء، والتضرع والدعاء، والضجيج والرجاء، وذلك بقيام العباس داعياً بدلاً من عمر رضي الله عنهما.

ثالثاً:

إن الصحابة بإجماع منهم، قد توسلوا بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم المنفصلة عنه من: شعره وأظافره، ونخامته، وهي ليس لها روح، فكيف يقال: إنّ عمراً لا يجوز التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته، مع أنه صلى الله عليه وسلم حيٌّ في قبره - كما سيأتي - كلا وحاشا عمر رضي الله عنه من ذلك، وإنما هو افتراء على عمر رضي الله عنه.

## أبحاث الاستغاثة

الاستغاثة هي: طلب العبد الإغاثة لشدة وقع فيها، أو ضائقة ألمت به، أو كربة اعترته، أو نحو ذلك، فهو يطلب من يسعفه ويدفع عنه ما حلَّ به.

ومن المقرر أن الإغاثة والعون والإمداد، كل ذلك هو الله تعالى على الحقيقة والاستقلال، ولكن هذا لا ينافي أن الله تعالى جعل لذلك أسباباً، ووسائط أعدها لا ينافي أن الله تعالى جعل لذلك أسباباً، ووسائط أعدها لذلك وإنكار الأسباب التي نصبها الله تعالى فيه تعطيل الحكمة، بل فيه تحديد القدرة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولذلك فإن القرآن الكريم أضاف كثيراً من الأفعال إلى الله تعالى وحده، ومع ذلك نسبها في آيات الأخرى إلى الأسباب والوسائط.

قال الله تعالى: **{وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا}** فنسب الإحياء إليه، ومع ذلك: **{وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً}** فنسب الإحياء إلى السبب، وهو العبد المخلوق.

وقال الله تعالى: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}**، وقال الله تعالى: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ}**.

وقال الله تعالى: **{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}**، وقال الله تعالى: **{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ}**، وقال الله تعالى: **{وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ}** فنسب النصر إليه على الحقيقة، ونسبه للمخلوق على السببية، فأبي مانع إذا قلت: يا فلان انصربي، وفي الحديث: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) الحديث.

وقال الله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}**، وقال الله تعالى: **{فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ}** فنسب الرزق إلى المخلوق لأنه سبب في ذلك.

وقال الله تعالى: **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}**، وقال الله تعالى: **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**، وقال الله تعالى: **{وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}**.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله) فبيّن أن قضاء الحاجات، وأن الإعانة كل ذلك من الله تعالى على الحقيقة، ومع ذلك أضافها الله تعالى

إلى السبب فقال: **{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ}** فبين أنه يجوز للعبد أن يسأل العبد، وأن المسؤول ينبغي أن لا ينهر.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **(والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)** فندب العباد أن يعين بعضهم بعضاً، فيجوز للعبد أن يستعين بأخيه.

وهكذا الإغاثة هي من الله على الحقيقة، فهو سبحانه المغيث، ومع ذلك نسب الإغاثة إلى العبد، كما ورد في حقوق الطريق: **(وأن تغيثوا الملهوف، وتهمدوا الضال)** رواه أبو داود، وهذا يجري في كثير من الأفعال. وفيما ذكرنا كفاية.

فإن قال قائل:

سلمنا الإغاثة والنصر وغير ذلك، سلمنا أنها تضاف إلى السبب، ولكن هل يجوز طلب الإغاثة والإعانة والنصر ونحوها من السبب، باعتبار أنه سبب وواسطة في ذلك.

فالجواب:

إنَّ ذلك جائز بأدلة ثابتة:

أولاً:

أجمع أهل الموقف كلهم على جواز ذلك، كما ورد في (صحيح) البخاري، في كتاب الزكاة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **(الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم)** الحديث.

ثانياً:

جاء في (الصحيح) في قصة هاجر أم إسماعيل، لما أدركه العطش، فجعلت تسعى في طلب الماء، فسمعت صوتاً ولا ترى شخصاً فقالت: **(أغث إن كان عندك غوث)** فلو كان طلب الغوث شركاً لما أقره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولما نقله الصحابة والمحدثون.

ثالثاً:

ورد في الحديث، عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إذا انفادت دابة أحدكم بأرض فلاة، فلينادِ يا عباد الله احبسوا، فإن الله عز وجلّ في الأرض حاصراً سيحبسه) رواه ابن السني، والحاكم وأبو عوانة والبخاري بسند صحيح.

قال الإمام النووي: حكى لي بعض شيوخنا الكبار بالعلم: أنه إذا انفلتت له دابة - أظنها بغلة - وكان يعرف هذا الحديث، فقال له فحبسها الله عليهم في الحال، وكنت أنا مرة مع جماعة، فانفلتت منا بهيمة، وعجزوا عنها، فقلته فوقفت في الحال بغير سبب، سوى هذا الكلام.

وروى الطبراني، عن عتبة بن غزوان، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إذا ضلّ أحدكم - أي عن الطريق - أو أراد عوناً، وهو بأرض ليس بها إنس فليقل: يا عباد الله أعينوني. ثلاثاً فإن الله عبداً لا يراهم).

ونقل في (شرح الأذكار) عن بعض العلماء الثقات أنه قال في هذا الحديث: حديث حسن، يحتاج إليه المسافر.

ونقل ابن مفلح الحنبلي في كتاب (الأداب الشرعية) عن عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي - أحمد بن حنبل - يقول: حججت خمس حجج، فضلت عن الطريق، وكنت ماشياً فجعلت أقول: يا عباد الله دلُّونا على الطريق، وكنت ماشياً، فلم أزل أقول ذلك، حتى وقفت على الطريق. أي: حتى اهتدي إلى الطريق.

فدلّ هذا على جواز الاستغاثة والاستعانة بالمخلوق، على اعتبار أنه سبب.

رابعاً: جاء في (الصحيحين) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: (خرجنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خيبر فسرنا ليلاً، فقام رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تسمعنا من هُنَيْهَاتِك - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا  
فاغفر لنا فداء لك ما أبقينا وثبت الأقدام إن لاقينا  
وألقيت سكينتنا علينا إنا إذا صيح بنا أبينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من هذا السائق؟).

قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: (يرحمه الله).

فقال رجل من القوم - أي عمر رضي الله عنه - وجبت يا نبي الله لولا أمتعتنا به. الحديث. فانظر يا هذا، لقد طلب عمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يمتنعهم بعامر - يعني أن يطيل عمره فيبقى حياً بينهم، يتمتعون به - ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تقل هذا يا عمر، أو لا تشرك يا عمر، بل أقره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مع أن الذي يطيل العمر على الحقيقة، ويتمتع بالآجال هو الله تعالى، قال تعالى: **{ فَأَمَّنُوا فَمَرَّغَتْهُمُ إِلَىٰ حِينٍ }** نعم.

ولكن الله نصب أسباباً لا تنكر، فهو صلى الله عليه وآله وسلم أعظم الأسباب، وأقوى الوسائط في جميع الخيرات والمبرات، من الإغاثة والإعانة والنصر، والإمداد والسعادة، وما هنالك أعظم واسطة في ذلك، بل في خير الدنيا والآخرة منه صلى الله عليه وآله وسلم، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: **{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }**، وأنت تعلم أن الرحمة شاملة لجميع الخيرات السعادات، الظاهرة والباطنة، في الدنيا والآخرة.

اللهم إني أسألك وأتوجه إليهم بوجه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أن تجعلني من خاصة خاصة أتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، ظاهراً وباطناً. والحمد لله رب العالمين. ولقد كان والدي قدس الله روحه، وتوَّزَّ ضريحه، يعتبر أصرح دليل على الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحديث، وهو قول عمر رضي الله عنه: (هلا أمتعتنا به يا رسول الله) فإن في ذلك معنى السؤال والطلب - أي: كأنه يقول: أمتعنا به يا رسول الله، أي: أطل لنا عمره، حتى نتمتع به.

سَيِّمًا والقائل ذلك عمر رضي الله عنه، وسَيِّمًا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ينكر عليه شيئاً فهي كلمة تعبر عمَّا هنالك من معانيها، كما كان رحمه الله تعالى يحتج على المخالفين في جواز التوسل، يحتج عليهم بإجماع الصحابة على التبرك والاستشفاء والاسترحام والاستنصار بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

## فإن قال القائل:

إن الاستغاثة إنما تكون من الأحياء لشعورهم بالاستغاثة، ولتمكنهم من الإغاثة، وأما الأموات فهل يحسون ويشعرون؟ فكيف تصحّ منهم الإغاثة؟.

## فالجواب:

## أولاً:

لقد ثبت أن الأنبياء أحياء صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم، فقد ورد في (صحيح) مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الإسراء، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائمٌ يصلي، فإذا برجل ضربٌ، جعدٌ، كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائمٌ يصلي، أقرب الناس به شبهاً عروة ابن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائمٌ يصلي، أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه صلى الله عليه وآله وسلم - فحانت الصلاة، فأمتهم - أي صار فيهم إماماً - فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه، فالتفت إليّ فبدأني السلام).

فهذا الحديث صريح في حياة الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم، حياة أقوى من الحياة الدنيوية، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلون، ثم صلّى بهم إماماً صلاة حقيقية، بدليل أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان وقتئذ في حياته الدنيوية، فصلّى بهم حقيقة، واقتدوا به على الحقيقة.

## ثانياً:

ثبت أن الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون، فورد في (صحيح) مسلم والنسائي، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أتيت ليلة أسريّ بي على موسى قائماً يصلي في قبره عند الكتيب الأحمر).

وروى البيهقي، وأبو يعلى، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون) قال العلامة المناوي: وهو حديث صحيح.

وروى الدارمي بإسناده، عن سعيد بن عبد العزيز قال: لما كان أيام الحرة، لم يُؤذن في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثاً، ولم يقيم - أي: تُرِكَ الأذان والإقامة ثلاثة أيام - ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهممة يسمعا من قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولالإمام الحافظ البيهقي رسالة خاصة في الأنبياء صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين.

ثالثاً:

أخبر الله تعالى عن حياة الشهداء فقال: **{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون} \* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** الآيات. ومن المعلوم أن مقام الشهادة منتظم في سلك مقام النبوة، سيما على قول حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بأنه صلى الله عليه وآله وسلم نال الشهادة الظاهرة والباطنة.

رابعاً:

ثبت أن الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم تُعْرَضُ عليه، وهذا دليل حياته صلى الله عليه وآله وسلم، وإلا فكيف تعرض على من لا يعي ولا يسمع. فقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، وابن حبان في (صحيحه)، والحاكم صححه، عن أوس ابن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثرُوا عليّ من الصلاة فيه، فإنَّ صَلَاتِكُمْ معروضة عليّ).

قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت - يعني بليت - .

فقال: (إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء).

وروى ابن ماجه بسند جيد، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (أكثرُوا عليّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنه مشهود، تشهد الملائكة، وإن أحداً لن يصلي عليّ إلا عرضت عليّ صلاته حتى يفرغ منها)،

قال: قلت: وبعد الموت؟

فقال: (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد أنبياء) عليهم الصلاة والسلام.

وروى البيهقي والأصبهاني، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا، من صلى الله عليّ يوم الجمعة قضى الله له مائة حاجة، سبعين من حوائج الدنيا، يوكل الله بذلك ملكاً يدخلها في قبوري، كما يدخل عليكم الهدايا، يخبرني من صلى عليّ باسمه ونسبه إلى عشيرته، فأثبتته عندي في صحيفة بيضاء).

هذا وقد ثبت في حديث التشهد أن يقول المصلي: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

أفتقول إن هذا سلام على من ليس به حياة ولا إدراك كلاب هو صلى الله عليه وآله سلم حيّ حيّ.

وقد ثبت في الشرع زيارة الأموات والتسليم عليهم عامة، وما ذلك إلا لأنهم يسمعون، ويحسون ويشعرون بزيارة الزائر، بل قال صلى الله عليه وآله وسلم، في قتلى المشركين يوم بدر: (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم) الحديث وقد تقدم. فما بالك بالمؤمنين فإنهم يسمعون ويعون ويشعرون.

فإن قال قائل:

سلمنا أنهم أحياء، فهل تأتي منهم منفعة لأهل الدنيا؟

قلنا في الجواب:

أولاً:

تقدم في الحديث الذي رواه البيهقي وابن أبي شيبة بسند صحيح، عن مالك الدار - وكان خازن عمر رضي الله عنه -، قال: أصاب الناس قحط زمان عمر رضي الله عنه، فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فشكى له وقال: (يا رسول الله استسق لأمتك، فإنهم قد هلكوا) فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، فقال: (أنت عمر، وأقرئه السلام،

وأخبره أنهم مسقون) الحديث. فهذه منفعة ظاهرة وإجابة كريمة منه صلى الله عليه وسلم. وتقدم أمر السيدة عائشة رضي الله عنها بفتح النوافذ فوق قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لما شكى الناس إليها القحط، ففعلوا ذلك فمطروا مطراً شديداً، وما وصل ذلك الخير إليهم إلا من سيادته صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً:

جاء في الحديث الذي رواه البزار بالسند الجيد، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (حياتي خير لكم تُحدثون ويُحدث لكم، ووفاتي خيرٌ لكم، تعرضُ عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله، وما رأيت من شر استغفرت لكم) قال الحافظ: إسناده صحيح، وقال الحافظ الهيثمي: رجال إسناده رجال الصحيح. فأئى منفعة وأئى خير أعظم من هذه المنفعة، والخير الواصل منه إلى أمته، وهو استغفار صلى الله عليه وآله وسلم حين يعرض عليه عمل المسيء، فيستغفر له صلى الله عليه وآله وسلم على حسب حال ومقام ذلك العامل.

وقد تقدمت قصة الأعرابي عن العلامة العتبي لما جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثالثاً:

روى الإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم، فإن كان خيراً استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا).

وروى أبو داود الطيالسي، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أعمالكم تعرض على أقاربكم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك).

وروى ابن أبي الدنيا، عن بلال بن أبي الدرداء قال: كنت أسمع أبا الدرداء وهو ساجد يقول: (اللهم إني أعوذ بك أن يمقنتني خالي ابن رواحة إذا لقيته).

أي: جنبني العمل السيئ حتى لا يُعرض عليه فيمقنتني حين ألقاه.

فدلَّت الأحاديث على أن الأحياء ينتفعون بدعاء الأموات، وتوجهاتهم إلى ربه تعالى.

رابعاً:

أنزل الله تعالى آيات كريمة، تبين فضل الشهداء، وما أعدَّ الله لهم من الأجر والكرامة، وما أعطاهم من الرتبة والمكانة، وما أعطاهم من الحياة الكاملة، أنزل تلك الآيات تنشيطاً لهمة المجاهدين، حتى لا يَجُنُّوا عن القتل في سبيل الله تعالى، ولا يزهّدوا في الجنة، ولا ينكلوا عند الحرب، كل ذلك كان بسبب أن شهداء أحد لما أعطاهم الله تعالى من الكرامة ما أعطاهم، واجتمعوا يتحدثون بذلك، فذكروا إخوانهم في الدنيا، وأحبوا أن يوصلوا إليهم خيراً يسرهم، وينهض بهمتهم، ويقوي دواعي عزيمتهم إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، والقتل في ذلك، حتى رأوا أن يبعثوا واحداً منهم بهذه البشائر، فقال: الله تعالى: أَنَا أَبْلغُهُمْ عَنْكُمْ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً} الآيات فهي نازلة إلى هذه الأمة بسبب أولئك الشهداء.

فقد روى أبو داود، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه: (إنه لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله تعالى أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أثمار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب ماكلهم ومشرهم ومقبلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا أننا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهّدوا في الجنة ولا ينكلوا عند الحرب.

فقال الله تعالى: أَنَا أَبْلغُهُمْ عَنْكُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً} بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ \* فَرَحِمَنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ } الآيات.

وقد تناولت أطرافاً من البحث حول التوسل والاستغاثة وذكرت جملةً موجزة من الأدلة، ومن أراد التوسع في ذلك، فهناك كتب مصنفة في ذلك، صنفها علماءنا السابقون أولو الفضل والتحقيق، والعلم والتدقيق، جزاهم الله عن المسلمين خيراً.

هذا البحث بقلم الإمام المفسر المحدث العارف بالله الشيخ: عبد الله سراج الدين (رحمه الله  
ونفعنا بعلومه)

نقله لكم: أخوكم محمد أبو النصر ششمان

وهذا البحث ينشر لأول مرة على الشبكة العنكبوتية وعلى منتدى الشريعة - حصرياً -

(راجين من الله التوفيق ومن عباده الدعاء)

